

* * *

السَّيِّدة صَفِيَّة

رَضِىَ اللَّهُ عنها

نجلاء شوقى حسن

السَّيِّدةُ صفِيَّة

رضِىَ اللّه عَنها

دخلَ السَّيدُ أحمدُ حجرةَ ابنَتِهِ عبـير ، فوجدَهـا تجلسُ إلى مَكتبِهـا الصَّغـير ، تقـرأُ إحـدَى المِجلاّت ، فهزَّ رأسَه وقالَ مُبتَسِما :

ــ أرَى ابنَتـى الحَبيبَـةَ قـد ملّـت اسْتِذكارَ دروسِـها ، وأَرجـو أن تَتذكّـرَ أنَّ الامْتِحانـاتِ أصبحتْ على الأبْواب .

فضَحِكـتْ عبـيرُ وقـالَت وهـىَ تقـومُ عـن مَقعدِها .

مَفهومٌ يا والِدى العَزيز ، وكلُّ ما هُنـالِك أنّـى اسْتَقطعْتُ بعضَ الوَقت ، لتَجديدِ النَّشاط .

قالتْ ذلك وأسْرعتْ تضُمُّ أباها وتَقول :

ـ أتَعلـمُ يـا والِـدى أنَّ ابنتَـك العَزيـزَةَ جِـدًا ، تَنقُصُها المَعرِفَة ، ومَعلومـاتٌ عَظيمـةُ الأَهمِّيَـة ، وقد اكْتَشـفْتُ هـذا وأنـا أقـرَأُ عـن مُسـابَقةٍ فـى المِجلَّة ، بها عِدَّةُ أسْـئلَة ، وكـانَ السُّـؤالُ الأوَّلُ أصعَبَها جَميعا ، وقد استْهلكَ كلَّ وَقتـى لَمعرِفَتـهِ دونَ جَدوَى ، فهلْ يُرضيكَ هذا يا أبى ؟

قالَ أبوها : وما هو ذلكَ السُّؤالُ يا ابْنَتى ؟

قالتْ وهى تُعيـدُ قِراءَتـه مـن صَفحَـةِ المِجلَّـة ، صَحابيَّةٌ جَليلَة ، مـاتَ شَـقيقُها شَـهيدًا ، وابنُهـا صَحابِىٌّ جَليل ، وهى قُرشِيَّةٌ هاشِـمِيَّة ، وفارِسـةٌ شُجاعَة .

هذا كلُّ ما فى السُّؤالِ يا أبى .

قالَ أبوها : وما هو المطلوبُ منّىَ الآن ؟

قالَت : المَطلوبُ مِنكَ الآن ، أن تُجيبَ عن هذا السُّؤال ، وتُعرِّفَنى بهذِه الشَّخصِيَّة ، وتَحكى لى حِكايَتَها .

قالَ أبوها : لا مانعَ عِندى .

ثمّ قال : هذه الشَّخصِيَّةُ هى صَفِيَّةُ بنتُ عبدِ المُطّلب ، بنِ عبدِ مَناف ، عَمَّةُ رَسولِ اللّه ـ صلّى اللّهُ عليهِ وسلّم ـ ، وأبوها عبدُ المُطّلِبِ هو زَعيمُ قُرَيش ، وأُمُّها هى هالَةُ بنتُ وَهب .

وقد نشأتْ صفِيَّةُ فى بَيتِ عبدِ المُطّلبِ سيِّدِ قُريْشٍ وزَعيمِها وصاحبِ المجدِ والشّرَف .

فتكوّنتْ شخصِيَّتُها القَويَّةُ ذاتُ النُّفوذ ، فى هذه الأُسرَةِ العَريقَةِ الحَسَبِ والنَّسَب ،

فنشَأَتْ فصيحةً بليغة ، وفارسةً شُجاعَة ، تركبُ الخيل ، وتُقاتلُ بالسَّيفِ والرُّمح .

وقد تزوَّجت السَّيِّدةُ صَفِيَّةُ مرَّتَين ، فكانَ زوجُها الأوَّلُ هو الحارثُ بنُ حَرب ، ولكِنّه ماتَ ولم تُنجِبْ منه ، ثُمَّ تَزوَّجها العَوّامُ بنُ خوَيْلِد ، أخو السَّيِّدةِ خَديجَةَ بنتِ خُوَيْلد ، فرُزِقَتْ منه بابْنِها الزُّبَيْرِ بنِ العَوَّام ، الّذى ماتَ أبوهُ وتركَه طِفلاً صَغيرا ، فتولَّتْ أُمُّه تَربِيَتَهُ وتَنشِئَته ، فكانت نِعمَ المُرَبِّيَة .

إنَّ السَّيِّدةَ صَفِيَّة ـ رضِىَ اللّهُ عَنها ـ تَعلمُ أنَّ الحياةَ العَربِيَّةَ تَلزمُها الرُّجولَةُ والفُروسِيَّة ، لذلك فقد ربَّت ابنَها علَى الخُشونَةِ منذُ الصِّغَر .

وهكذا نَشأَ الزُّبيرُ بنُ العَوّامِ كما أرادتْ أُمُّهُ أن

يَكون .

وعندَما أشْرَقت مَكّةُ بنورِ الإسْلامِ على يَدِ ابنِ أخيها مُحمَّد ـ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام ـ كانت السَّيِّدةُ صفِيَّة ، من أوائلِ الّذينَ آمَنوا به ، وصدَّقوا رِسالَتَه .

وكان قد سبَقَها إلى الإسْلام ابنُها الزُّبيرُ بنُ العَوّام ـ رضِيَ اللّه عنه ـ وقد بلَغَ به حَماسُهُ وحبُّهُ لدينِ اللّه ، أن تَصدَّى يومًا لأحدِ المُشرِكينَ الضّالين ، الّذين هَزءوا به وبإيمانِه ، أن ضَرَبَهُ وشَجَّه . وهكذا كان الزُّبيرُ بنُ العَوّامِ كما أرادتْ له أُمّه ، فقد وصلَ إلى دَرجةٍ عاليةٍ من الإيمان والتّضحِيَةِ والفِداء . وقد قالَ رسولُ اللّهِ

ـ صلّى اللّهُ عليهِ وسلَّم ـ إنَّ لكُلِّ نبىٍّ حَوارِيّا ، وحَوارِىَّ هو الزُّبيرُ بنُ العَوّام .

وكان رسولُ اللّه ـ صلّى اللّهُ عليهِ وسلّم ـ عِندَما بعثَهُ اللّهُ بالهُدَى ودينِ الحقِّ لِيُخرِجَ النّاسَ من الظُّلماتِ إلى النور ، أمرَهُ فى البِدايةِ بأن يَدعو أهْلَه إلى الإسْلام ، فقالَ : ﴿ وأَنذِر عَشيرَتَكَ الأقْرَبين ﴾ فجمعَ الرَّسول ـ صلّى اللّهُ عليهِ وسلّم ـ أقارِبَهُ رِجالاً ونِساءً وأطْفالا ، ودَعاهم إلى الإسْلام ، وحضَّهم على التّصديقِ برِسالَتِه ، وأعلَمهُم أنّه لن يُغنِىَ عنهم يومَ القِيامَة ، فقال : (يا فاطِمَةُ بنتُ محمَّد ، يا صَفيَّةُ بنتُ عبدِ المُطّلِب ، يا بَنى عبدِ المُطّلب ، إنّى لا أملِكُ لكم منَ اللّهِ شَيئا) وكانتْ لكَلِماتِ

الرَّسول ـ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم ـ أكبرُ الأثرِ على قَلب السَّيِّدةِ صَفيَّة ، حيث عرَفَ الإيمانُ طَريقَهُ إلى قَلبِها ، فامْتلأ قلبُها نورًا وإيمانًا وهِدايَة ، وودَّعتْ حَياةَ الجاهِليَّة ، وبذلك كانتْ من أوائلِ منْ دخلوا فى دينِ اللَّهِ عزَّ وجَلَّ .

وهكذا جَمعتِ السَّيِّدةُ صَفيَّةُ بينَ شَرفِ النَّسبِ وعِزَّةِ الإيمان ، بعدَ دُخولِها فى دينِ اللَّه. فاسْتقبَلتْ حَياةً جَديدَة ، ملؤها النُّورُ والهِداية ، فهاجَرت هى وابنُها إلى يَثرِب ، على الرُّغمِ من كِبَرِ سِنِّها ، فقد كانت تَقترِبُ من عامِها السِّتين ، ومعَ ذلك كانتْ لها فى مَيادينِ القِتالِ مَواقفُ عَظيمَة ، مازالَ التّاريخُ يَذكُرُها فى صَفَحاتِهِ بحُروفٍ من نور .

ففى يومِ أُحُد ، كانت فى طَليعَةِ النّساءِ اللاّتى خَرجنَ لخِدمَةِ المُجاهِدينَ وتَحميسِهم للجِهاد ، ومُداواةِالجرحى . فلمّا انهزَمَ المُسلِمونَ فى هذه الغَزوة ، عِندَما خالفَ الرُّماةُ أمرَ الرَّسول ــ صلّى اللّهُ عليهِ وسلَّم ــ بالثّبات ، فتَركوا أماكِنَهم ونَزلوا يَجمَعونَ الغَنائم ، ولم يبقَ حولَ الرَّسولِ إلاّ القَلائلُ من أصْحابِه ، قامتْ صَفيَّة ــ رضى اللّه عنها ــ وبيَدِها رمحٌ تضرب به وجوهَ المنسحبين وتقول لهم ؟

ــ انهزمتم عن رسول اللّه ؟

فلما رآها رسول اللّه ــ صلّى اللّهُ عليهِ وسلّم ــ أشفق عليها وقال لابنها الزُّبير بن العوّام :

ــ القَهـا فأَرجِعْهــا .. لا تــرَى مــا بشَــقيقِها (حَمزةَ بنِ عبدِ المُطَّلب) .

فلَقِيَها الزُّبيرُ فقال :

ــ يا أُمَّه ، إنَّ رَسولَ اللّـه ــ صلّـى اللّـهُ عليـهِ وسلّم ــ يأمُركِ أن ترجِعى .

فقالتْ السَّيِّدةُ صَفِيَّة :

ــ ولِمَ ؟ فقدْ بَلغنى أنّه مُثِّلَ بأخى ، وذلـكَ فـى اللّهِ عزّ وجلّ قَليـل . فمـا أرْضانا بما كـانَ من ذلك .

لأحْتَسِبَنّ ولأَصبِرنّ إن شاءَ اللّهُ تَعالى .

وعادَ الزُّبيرُ إلى رسولِ اللّه ــ صلّـى اللّـهُ عليـهِ وسلّم ــ فـأخبَره بذلـك ، فقـالَ عليـهِ الصَّــلاةُ والسَّلام :

ـ خلِّ سبيلَها .

فأَتت السَّيِّدةُ صفِيَّةُ نحو جُثَّةِ حَمـزة ، فنظَرَتْ إليـه ، وصلَّـت عَليـه واسْتَرجَعتْ واسْتغفَرتْ ، فأمرَ رسـولُ اللَّـه ــ صلَّـى اللَّـهُ عليـهِ وسلَّم ــ فدُفِن .

وقالتْ تَرثية ــ رضِيَ اللَّه عنها ــ بعدَ دَفنِه :

أسائلَــةٌ أصْحابَ أحُدٍ مَخافـةَ
بنـاتِ أبـى من أعْجُـمٍ وخَبـير
دُعاءَ إلهِ الحقِّ ذى العرشِ دَعـوةً
إلى جَنَّـــةٍ يحيـا بهـا وسُـرورِ
فواللَّهِ لا أنسـاكَ ما هبَّـتِ الصَّبـا
بكاءً وحُزنًا محضَرى ومَسيرى

وفى يومِ غَـزوة الخَنْدَق « الأحْزاب » خَـرجَ رسولُ اللّه ــ صلّى اللّهُ عليهِ وسلّم ــ وأصحابُـهُ مـن المَدينـةِ لقِتـال أحـزابِ المُشـركين ، وتَركـوا النّســاءَ فـى حِصـنِ « حسّــانَ بــنِ ثــابت » الأنْصارىّ ، وكانَ فى جُزءٍ من المَدينةِ يَعيشُ فيـه اليَهود ، الّذين كان بينَهـم وبـينَ رَسولِ اللّـه ــ صلّى اللّهُ عليهِ وسـلّم ــ عَهـدُ أمـانٍ لا يَعتَـدون على المُسلِمين ، ولا يَعتدى المُسلمونَ عليهم .

وبينَما النّساء فى قَلقِهـنّ علـى المُؤمِنينَ الّذيـنَ خَرجـوا للقِتَـالِ عنـدَ الخنـدَق ، كـان رجـلٌ مـن اليَهودِ يَطوفُ بـالحِصنِ ويَتجسَّـس ، وكـانَ من بنِى قُريظَةَ الغادِرينَ الماكِرين ، الّذينَ تعاهَدوا مع رَسولِ اللّه ــ صلّى اللّهُ عليـهِ وسـلّم ــ ، فرأتْـه

السَّيِّدةُ صَفِيَّة ـ رضى اللّه عنها ـ فدبَّت فيها الحَماسة ، فقامَتْ وأخذتْ عَمودًا غَليظًا ، ثمَّ نزلتْ من الحِصن ، وفتَحتْ بابه على مَهَل ، وفى هُدوء . وتَحيَّنت فُرصةَ غَفلةِ اليَهودِىّ ، وضَرَبتْه بالعَمودِ على أُمِّ رأسِه ضَرباتٍ مُتلاحِقَة ، فقَتلَته ، ثمَّ رجَعتْ إلى الحِصن . فلمّا عَلِمَ اليَهودُ بأنَّ رجُلَهم لم يَعُد بَعدُ وقد فاتَ من الوَقتِ الكَثير ، أدرَكوا بأنَّ رِجالَ المُسلِمينَ بالمَدينة لحِمايَةِ النّساء ولم يَخرُجوا جَميعًا للقِتال ، ففَشِلتْ خِطَّتُهم لسَرِقَةِ النّساء ، والزَّحفِ خلفَ المُسلِمين .

وفى يَومِ غَزوةِ خَيبَر ، انطَلَقَت صَفِيَّةُ مع بعضِ النّسوةِ المُسلِماتِ المُؤمِناتِ ، يَشدُدنَ أزرَ

المُجاهدِين ، واتّخذنَ قَريبًا مـن مَيـدانِ المَعركـة ، مع كُعَيبَةَ بنتِ سَـعدٍ الأسـلَمِيّة ، خَيمـةً يُداويـنَ فيها جِراحاتِ المُصابين ، ويقُمنَ على خِدمَتِهـم . ولقدْ ضربتْ السَّيِّدةُ صَفيَّة ، أعظمَ المُثُلِ على أنَّ المرأةَ قادِرةٌ على إفادَةِ المُجتَمعِ فى جَميعِ أَوقاتِه ، فى السَّلمِ وفى الحَرب .

وحـينَ لَحِقَ رسُولُ اللّه ـ صلّـى اللّهُ عليـهِ وسلّم ـ بالرَّفيقِ الأَعلَى ، كانتْ صَفيَّة ـ رضِـىَ اللّه عَنها ـ من أكثَرِ أهلِـهِ جزَعًـا وحُزنًـا عليـه .

وعاشَـت ـ رضـىَ اللّـهُ عنهـا ـ بعـدَه مُعـزَّزةً مُكرَّمـة ، يَعـرِفُ الخُلفـاءُ والصَّحابـةُ لهـا قَدرَهـا ومَكانَتَها .

ثمَّ تُوفّيت ـ رَضِيَ اللّهُ عَنها ـ في خِلافَةِ عُمَر ابنِ الخَطّاب ـ رَضِيَ اللّه عنه ـ سنَةَ عِشرينَ من الهِجرَة ، ودُفِنتْ في البَقيع .

قالتْ عَبيرُ في دَهشَة :

ـ يا لَها من قِصَّةٍ شائقَة ، لم أسمعْ بِها من قَبْل . وهذا يَدلُّ علَى أنَّ هُناكَ حِكاياتِ بُطولاتٍ كَثيرَة ، لأجْدادِنا المُسلِمينَ الأوائِل لا تَنتَهِي .

قالَ أبوها في سُرور : أعْتقِدُ الآنَ أنَّه يُمكِنُكِ الإجابَةَ عن السُّؤالِ الصَّعب .